المرحوم رفيق بك العظم

مر على الشام وقت لم يكن فيه من يُعمل قلمه في ايقاظ أهله عامةً والمسلمين من أبنائه خاصةً ، غير قلم المرحوم رفيق بك العظم : وأفراد لا يتجاوزون عدد الانامل ، ولذا فقد خسر العالم العربي بوفاته عالمًا من أكبر علمائه العاملين . وكاتبًا نبيلاً من أعظم كتابه الاجتماعيين . ومخلصًا وطنيًا فهم معنى الحياة الجديدة على غير ما فهمها كثير من السالفين والمعاصرين . فلما كان الكتاب المسلمون منذ نصف قرن يجيدون في غير الرسائل ذات الاسجاع ، والموضوعات التي سئمتها النفوس والطباع ، وكأنهم لم يريدوا فيما يكتبونه نفع أمتهم او خدمة وطنهم ، بل ربما لم يكونوا في ذلك العهد عرفوا كلمة الوطن ، حتى نهض الفقيد رحمه الله فسلك في صناعة الكتابة طريقًا جديداً ، جعل عماده الاشادة بذكر الوطن ، وتنبيه أبنائه الى ما ينقصهم من وسائل النهوض ، وأسباب الارتقاء السياسي والاجتماعي والاخلاقي .

ولد الفقيد في دمشق من أسرة آل العظم المشهورة في حدود سنة ١٢٨٠ للهجرة فكانت نشأته كنشأة أبناء أعيان ذلك الزمان من حيث الاقتصار على مبادي الفنون اللهم الا من أراد الدخول في خدمة الحكومة او سلك رجال الدين ، فيجتهد في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحصيل ما يساعده على المضيّ في هذين الطريقين لكن المترجم رحمه الله لم يكن من هؤلاء ولا اولئك . وانما اتفق له مثافنة أجلاء من شيوخ العلم كالعلامتين الشيخ سليم البخاري والشيخ طاهر الجزائري ، فاقتبس منهم نوراً أضاء له الطريق الى مواصلة السعي في التنبيه والايقاظ . وأخذ من يومئذ يكتب الفصول الرائعة في الاصلاح الاجتماعي . و يدبج المقالات الممتعة في مختلف الموضوعات الوطنية و ينشرها في الصحف والمجلات ، و يقرض الشعر في أغراض خاصة تحزبه الى معاناته ، والغالب ان الشاعرية سرت اليه من والده المرحوم محمود بك ، وكان شاعراً لا بأس به بالنسبة لعصره وله ديوان محفوظ في دار الكتب العربية بدمشق .

ولم يكن الفقيد ليطيق صبراً على ما يشاهده في ذلك الدور الحميدي من خرق السياسة وفساد الادارة ، فكان يحوم في كتاباته أحياناً حول نقد الاعمال ، والتشاؤم بالاحوال . وكان يجتمع في بلده دمشق بالأحرار الاتراك فتلقحت نفسه من مبادئهم الحرة وفي مقاومة الاستبداد والمستبدين . ووقف على الكثير من أسرار رجال ذلك الدور . وقد أوتي شجاعة أدبية لا يبالي معها ان ينتقدهم ، ويقبح طرائقهم ، ولم يدم هذا طويلاً حتى رأى نفسه في دار قُلعة فأزمع الرحلة الى القطر المصري حيث دعته ضرورات بيتية فوجد لقلمه مجالاً أوسع ، ولمواهبه مقساماً أرفع ، فهاجر اليه في حدود سنة (١٣١٠هـ) . ولم يمض عليه في القاهرة زمن قليل حتى توشّجت الصداقة بينه وبين اكبر علمائها وكتابها وسياسييها . واتصل بالمرحوم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وبحلقته أمثال المرحومين قاسم امين وفتحي زغلول وحسن عاصم من نبغاء مصر . وأخذ منذ وطد نفسه على المقام في مصر يضع خططاً للاصلاح السياسي والاجتماعي بمعونة من صادفهم واجتمع بهم من كبار الرجال المصريين والشاميين والاتراك العثمانيين . وكان هو من جملة مؤسسي جمعية (الشورى العثمانية) الحرة ، وقد أصدروا باسمها جريدة سمّوها (الشورى العثمانية) فكان الفقيد ينشيء القسم العربي فيها . وكانت اذ ذاك جمعية (تركيا الفتاة) في إبان مجدها ، ومعممان عملها . فتقاربت الجمعيتان ، وعملتا على توحيد مساعيهما . ومن هنا اتصل الفقيد رحمه الله بجمعية الاتحاد والترقي . وجعل كبار أعضائها في الاستانة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واوربا يعتمدون عليه . و يعدّونه من أركان جمعيتهم وموضع ثقتهم في مصر .

وان اشتغال الفقيد بالسياسة الى هذا الحد لم يكن ليثني عزيمته عن التأليف والكتابة : فكان له من الخطب والآثار والرسائل المنشورة في الصحف والمجلات ما لو جمع لكان عدة مجلدات (جمع بعضها شقيقه عثمان بك بعد وفاته في سفر لطيف) وأشهر مصنفاته كتاب (أشهر مشاهير الاسلام) كتب منه اربعة أجزاء طبعت مراراً لكنه لم يتمه ، وهو من أهم ما كتب و به استفاضت شهرة الفقيد في القاصية من بلاد العرب والاسلام ، ومن مصنفاته كتاب (الدروس الحكمية للناشئة الاسلامية) و (البيان في أسباب التمدن والعمران) و (البيان في كيفية انتشار الاديان) و (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية في الاسلام) و (الجامعة الاسلامية واوربا) وغير ذلك من الآثار الممتعة . والرسائل النافعة التي تنم عن ذوق راقٍ وروح سامية شفافة وبعد نظر في الشؤون الاسلامية .

ولما اشتد الخلاف قبيل الحرب العامة بين أحرار العرب وجمعية الاتحاد والترقي كان الفقيد من أكبر العاملين في مناهضة تلك الجمعية ، والكشف عن مساويها حتى كان من أمرها ما يعرفه القراء .

ثم لما حدث الانقلاب الاخير وقامت الحكومة الفيصلية في ربوع الشام ، جاء المترجَم وطنه دمشق زائراً . فكان موضع حفاوة أمرائها وعظمائها ، واقترحوا عليه ان يتقلد بعض الرئاسات الكبرى فاعتذر . وكان (مرض الربو) اشتد عليه فرجع الى مصر ولازم داره بمصر الجديدة حتى اخترمته المنية في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة (١٣٤٣) . وكان مجمعنا العلمي انتخب الفقيد عضواً مراسلاً له في القاهرة فلم تساعده صحته على خدمة المجمع بقلمه الا قليلاً . لكنه خدمه وخدم وطنه أجلّ خدمة . وطوقهما من إحسانه باعظم نعمة : ذلك انه وهب لدار الكتب العربية مكتبته التي جمع أسفارها طول حياته . وهي نحو الف مجلد من غرر الكتب ونفائسها . وقد أرسلها الى دار المجمع شقيقه الفاضل عثمان بك العظم من مصر . وأعلن المجمع ذلك في حينه . وقد كان إهداؤه هذه الكتب الى دار الكتب الدمشقية خاتمة أعمال الفقيد في خدمة وطنه . اما ذكراها فهو لا ينفد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أهم صفات الفقيد الشيم وعزة النفس ، والكرم لغير غرض الا خدمة الآداب والجامعة العربية الاسلامية ، كان عزوفاً ميمون النقيبة ، ورجل أخلاق وفضائل حقاً وصدقاً ، كتوماً صبوراً جلداً ، نزيه القلم واللسان ، لايذكر الناس الا بالخير اذا دعت الضرورة القصوى لذكرهم ، ويسكت عن المساوئ ولو اقتضت الحال نشرها ، تجسم فيه الوفاء وجميل العواطف والنبل الحقيقي ، والترفع عن الدنايا وخبث الطعمة ، اذا تعرفت اليه استمالك قليك بجاذبه الروحي ، واسترق فؤادك بحسن معاملته ، مخلص لاصدقائه اخلاصه لامته في الغيبة والمحضر ، يسير في فكره مع الرقي ، تشبعت روحه بالفكرة التاريخية والتغني بمجد الاجداد خصوصاً أهل الصدر الأول منهم . وبالاجمال فهو من نوابغ دمشق في كرم محتد ، وشرف مقصد ، وحياة شريفة ، صرفت دقائقها في خدمة المصلحة العامة ، والجهاد في انارة الافكار وإزالة المظالم ونشر العدل بين الخلق رحمه الله عدادحسناته .